كيف انتقلت حضارة مصر

للأستاذ عبد الهادى حمادة

الامين المساعد بدار الآثار المصرية
ومدرس اللغة المصرية بمعهد الآثار

obeikandl.com

obeikandl.com

تناول حضرات من سبقوني تراث قدماء المصريين للحضارة العالمية ، فوفّوا المواضيع حقها من البحث ، وكشفوا لنا عن طرف هام من حضارة مصر ، وأثرها في حضارات العالم ، ولم يبق علينا الآن الاّ أن نستقصي أثر تلك الحضارة وكيفية انتقالها من مصر الى غيرها من الامم ، وهذا ما أحاولهُ في هذا المقال

ومن حسن الحظ أن الاكتشافات الحديثة قد هيأت لنا كل السبل اللازمة للبحث والاستقصاء ، مذ توجهت عناية الباحثين من علماء الآثار والمؤرخين الى الحفر في انقاض المدن القديمة . فمن أواخر القرن الماضي فصاعداً ، توالت الحفائر بمصر وسوريا وآسيا الصغرى والعراق وفلسطين وكريت وغيرها ، وكانت النتيجة أن وصلنا الى آراء تكاد تكون ثابتة عن أصول المدنيات الحديثة . وأضحت لدينا البراهين الملموسة على مبلغ ما أسدى الشرق القديم — وبالأخص مصر — الى أمم العالم أجمع ، في جميع نواحي المدنية من فن وعلم وفكر وثقافة

ولكي نتتبع أثر الحضارة المصرية في أدوار انتقالها الى الامم الاخرى في الازمنة المختلفة ، ينبغي علينا أن نرجع الى العصور الاولى لمنشأ تلك الحضارة ، وأن نتناول أيضاً طرفاً من تاريخ الامم التي كانت على اتصال بها

ولتشعب الموضوع رأيت أن أقسمهُ الى قسمين أطلقتُ على الاول منهما عصرَ التكوين ، وهو العصر الذي تكونت فيهِ الحضارات المختلفة التي ضربتْ الحضارة المصرية بسهم وافر في تكوينها ، واطلقتُ على الثاني عصر الانتشار ، وهو العصر الذي توثقت فيهِ عرى الاتصال بين مصر والامم الاخرى ، وانتقلت فيهِ حضارة ناضجة من مصر الى تلك الامم ، كما امتدت حضارات تلك الامم الى باقي انحاء العالم . ويقضي الترتيب الطبيعي أن نبدأ بالقسم الاول

قبل المسيح بنحو خمسين قرناً كان العالم كلّه لا يزال غارقاً في بحار الهمجية ، بالرغم من أنهُ كان قد بلغ العصر الحجري الحديث . ومنذ ذلك الوقت ، ابتدأت الحضارة تغزو بعض أجزاء العالم . فكانت كلما غزت بقعة من البقاع انتقلت من ظلمة الجهالة الى نور العرفان . وقد كان هذا بطبيعة الحال في عصور مختلفة وتحت تأثيرات متباينة . فبينما نرى نواحي من العالم قد قطعت شوطاً بعيداً في طريق المدنية والتقدم ، اذ بنا نجدُ نواحيَ أخرى منهُ قد ظلت في عصورها الحجرية عشرات القرون بعد ذلك

واذا أردنا أن نتكلم عن الجهات التي غزتها الحضارة في عصور مبكرة كان علينا أن نلقي نظرة على جزء من العالم يمتد من البحر الاسود وبحر قزوين شمالاً الى حدود مصر جنوباً ، ومن حدود الهند شرقاً الى بلاد ايطاليا غرباً . على أن مهد الحضارات الاولى يكاد لا يشمل الاّ

حوض نهر النيل في افريقيا وجزءاً خصباً يمتد على شكل هلال في الصحراء بين الخليج الفارسي والبحر الابيض المتوسط في آسيا ، ثم شواطىء اوربا الشرقية (انظر لوحة رقم ١)

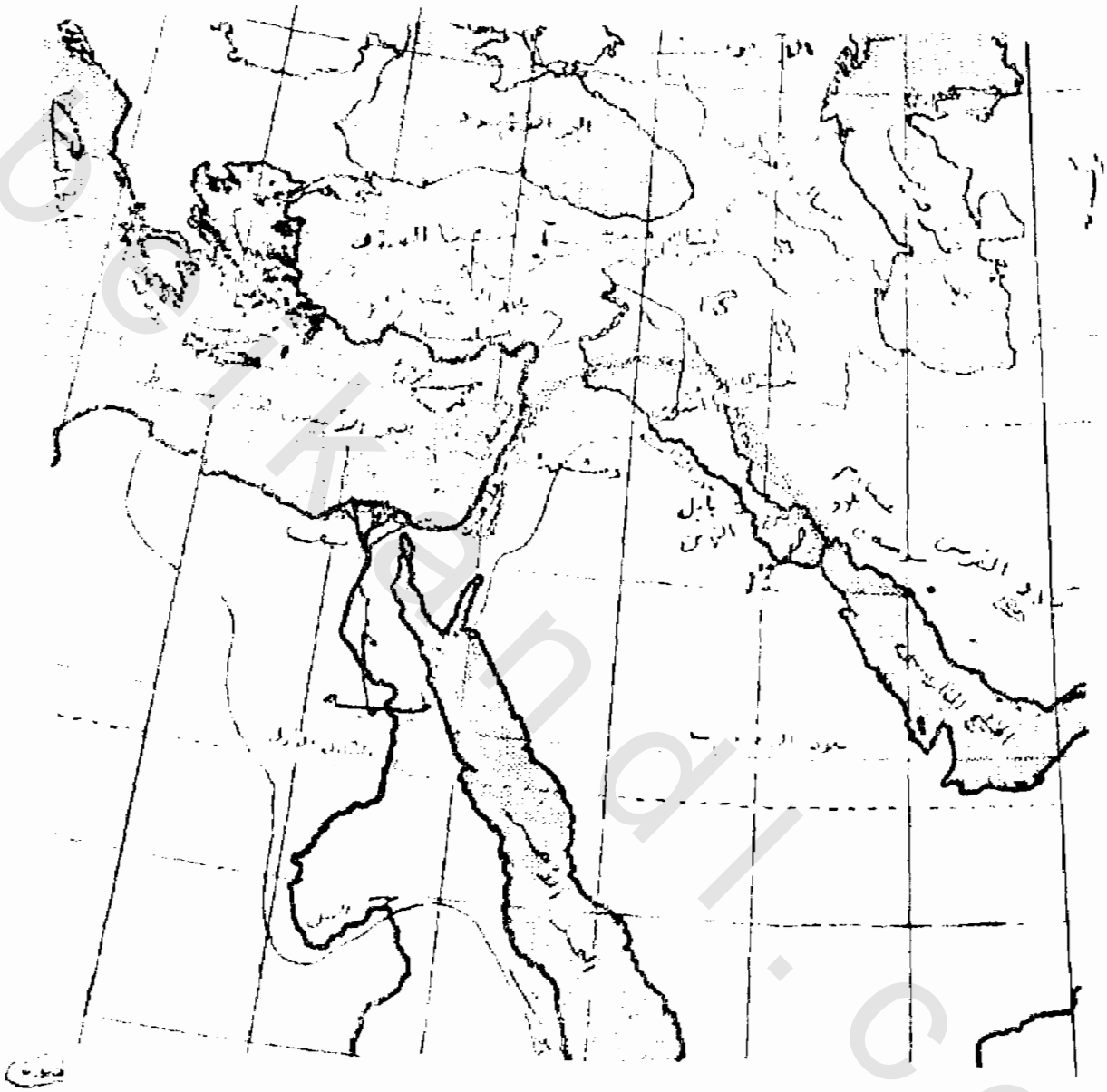

(لوحة رقم ١)

في هذا الجزء من العالم نشأت حضارات مختلفة ونمت وازدهرت ثم تصادم بعضها ببعض فاندثرت حضارات وقامت مكانها أخرى ، واتحد بعضها الآخر ببعض فتكونت حضارات جديدة

وأهم هذه كلها ثلاث حضارات تكونت في أزمنة مبكرة وفي أوقات متفاوتة . وتلك هي : حضارة المصريين في وادي النيل ، وحضارة البابليين في حوض نهري الدجلة والفرات وحضارة جزر بحر ايجي وأهمها جزيرة كريت

وكان أقدم تلك الحضارة ، الحضارة التي تكوّنت في وادي النيل ويرجع تاريخ منشئها

غالباً الى نيف وخمسة آلاف سنة قبل المسيح . ولا حاجة للتدليل على ذلك ما دام ثابتاً انهُ كان للمصريين تقويم فلكي في سنة ٤٢٤١ ق . م . فهذا ولا شك أثرٌ من آثار حضارة متقدمة جداً لا بد وأن تكون قد نشأت قبل ذلك التاريخ بعدة قرون . وقد سمعنا في المحاضرات السابقة الكثير عن الحضارة المصرية في نواحيها المختلفة . أما الحضارة الثانية فهي حضارة لا تقل عن حضارة مصر . وان ترجّح الآن انها تلوها في القدم وهذه هي حضارة بلاد ما بين النهرين

ففي أواخر الالف الرابع قبل المسيح ظهرت حضارة في شمال الخليج الفارسي عند مصب نهري الدجلة والفرات . ويظهر ان قوماً جبليين نزلوا من الجبال الشمالية الشرقية الى تلك الجهة. لم يكن هؤلاء القوم ساميين ، اذ كشفت الحفائر التي عملت في السنوات الاخيرة ببلاد التركستان، عن آثار لاتختلف في قليل أو كثير عن آثارهم . وهؤلاء القوم هم المعروفون بالصوميريين. وكانت لهم حضارة فزرعوا الوادي الخصب ، وعرفوا العجلات . واستخدموا لجرّها الثيران والحمير ، واستعملوا النحاس في صناعاتهم ، ونظموا دولة وتجارة، وأثبتوا لغتهم بالكتابة التصويرية ثم أخذوا في تبسيطها حتى أصبحت الكتابة المعروفة بالمسمارية . واستقر في شمال موطنهم قوم ساميون ، بارعون في الحروب ، يدعون الاكاديين . وبالرغم من أنهم كانوا أقل حضارة من الصوميريين الا أنهم أغاروا عليهم وتمكنوا من فتح بلادهم . ثم اتحد هذان العنصران وتكونت منهما أمةٌ عظيمة ، هي الامة البابلية نسبة لبابل قاعدة ملكهم. وقد أثبت التاريخ في بطون صفحاته ملكهم العظيم « حامورابي » الذي عاش قبل المسيح بـ ٢٠٠٠ عام ، وما قام به من الاصلاح والتنظيم في جميع نواحي الحياة ، لاسيما ما وضعهُ من القوانين

هذا هو الطوّر الاول للحضارة التي تكوّنت وازدهرت في حوض نهري الدجلة والفرات . وهي احدى الحضارات الثلاث التي أشرنا اليها . وكانت أساس حضارة الطور الثاني بتلك البلاد، كما كانت ذات أثر واضح في تكوين حضارات أمم اخرى . وفي هذا الطور من تاريخ بلاد ما بين النهرين ، نرجح أنهُ لم يكن هناك صلات مباشرة بينها وبين مصر ، اذ ليس لدينا حتى الآن دليلٌ على أن الأمتين كانتا مختلطتين . غير أن حضارتيهما اتصلتا بالفعل عن طريق أمة أخرى كانت ذات أثر فعال في حضارات الامم القديمة وهي الأمة الفينيقية

والفينيقيون الذين اشتق اسمهم من كلمة Poivos ومعناها أحمر ، ويغلب أن يكون الرومان قد أطلقوها عليهم بسبب لون جلدهم ، قوم رحّل أتوا من جهة الخليج الفارسي ، واستوطنوا الجزء الشمالي من الشاطىء الشرقي للبحر الابيض المتوسط . وقد هيأت لهم الظروف المحيطة بهم نوع حياتهم ، فقد وجدوا طريق البحر بسواحله وما فيه من جزر قريبة منبسطاً أمامهم ، كما وجدوا في متناول أيديهم الاخشاب اللازمة لبناء السفن . فأصبحوا بحّارة وتجاراً من الطبقة الأولى .

لا سيما وأنهم بعد أن تعلموا الفلك من المصريين لم يوجهوه الى التنجيم والسحر ، كما فعل غيرهم من الأمم الشرقية بل انتفعوا به في حياتهم، واتخذوا منهُ أداة لجوب البحار ومعرفة سبلها ليلاً ونهاراً وقد أسسوا على شواطىء البحر الابيض مدناً أصبحت فيما بعد أعظم المراكز الهامة للتجارة وبقيت اسماؤها خالدةً في التاريخ. ومن منا لم يسمع عن أرواد وصور وصيدا وجبيل وسمارا وعكا وبيروت ؟

استقرّ هذا الجنس في فينيقيا منذ الالف الثالث قبل المسيح ، ولم تكن لهؤلاء القوم حضارة خاصة ، لكنهم اتصلوا بالمصريين وأخذوا عن حضارتهم ، كما اتصلوا بالبابليين واقتبسوا من حضارتهم ، وكوّنوا لانفسهم حضارةً قائمة بذاتها ، ولكنها في الحقيقة مزيج من الحضارتين المصرية والبابلية . وكما كانت لهم سفن تجوب البحر بمتاجرهم وتصلهم بالمصريين وغيرهم ، كانت لهم كذلك قوافل تسير على حافة الهلال الخصب بين البحر الابيض والخليج الفارسي وتتصل بالحضارات التي نشأت هنالك والتي كان على رأسها الحضارة البابلية

وقد أخذوا عن المصريين الكثير من أساليبهم في جميع شؤون الحياة من فن وصناعة وعلم وفكر ، فتعلموا منهم صناعة القيشاني والزجاج ونسج الكتان والصباغة وصناعة المعادن بأنواعها. وكان فنهم في الزخرفة مزيجاً من الفنين المصري والبابلي . ولكن أهم ما أخذوه عن مصر شيئان هما في الحقيقة عناصر الحضارة الاولى في ذلك العصر ، وهما استعمال النحاس والكتابة . فقد اقتبس الفينيقيون الحروف الهجائية المصرية وعددها اثنان وعشرون حرفاً من الخط الهيراطيقي وحوّروا في أوضاعها قليلاً للتبسيط واستعملوها لكتابة لغتهم التي كانت ولا شكّ لغة سامية . وقد أصبح واضحاً في الأذهان أن اتصال هؤلاء القوم بالمصريين يرجع الى أوائل عصر الدولة القديمة بمصر . وبلغ من شدة صلتهم بالمصريين بعد ذلك أن أقطعهم ملوك مصر حيًّا خاصًّا بهم في مدينة منف ليكون سكناً لهم ومركزاً لتجارتهم

والحضارة الثالثة هي حضارة جزر بحر إيجى . وأسبق هذه الى الحضارة وأعمها كانت جزيرة كريت . فبحر إيجى الذي يشبه بحيرة كان محاطاً من جميع جهاته بأرض تسكنها أمم متحفزة لاخذ قسطها من المدنية. وجزيرة كريت هي مفتاح هذا البحر، وتكاد تكون القنطرة الطبيعية بين الشرق والغرب. ومنذ الالف الثالث قبل المسيح ظهرت بها مبادىء حضارة أخذ في تكوينها جنس أبيض موهوب . وظهر استعمال النحاس في الجزيرة من أوائل الالف الثالث قبل المسيح. ولاشكّ أنهم اخذوه من مصر ما دام قد ثبت أن اتصالهم بالمصريين يرجع الى عصر بناة الاهرام بمصر او قبل ذلك . ويكفي دليلاً على ذلك ورود اسمهم « كفيتو » في النصوص المصرية منذ ذلك العصر. ومن منتصف الالف الثالث قبل المسيح ابتدأ الكريتيون يتعلمون من المصريين صناعة الخزف والصناعات المعدنية . غير أنهم — والحق يقال — عند ما جاء الالف الثاني قبل الميلاد كانوا قد

(لوحة رقم ٤)

(١) — فوق — تمثل الحيوان المجنح عند المصريين
(٢) — تحت تمثل نفس الحيوان كما وجد في الصور المسينية

(لوحة رقم ٦)

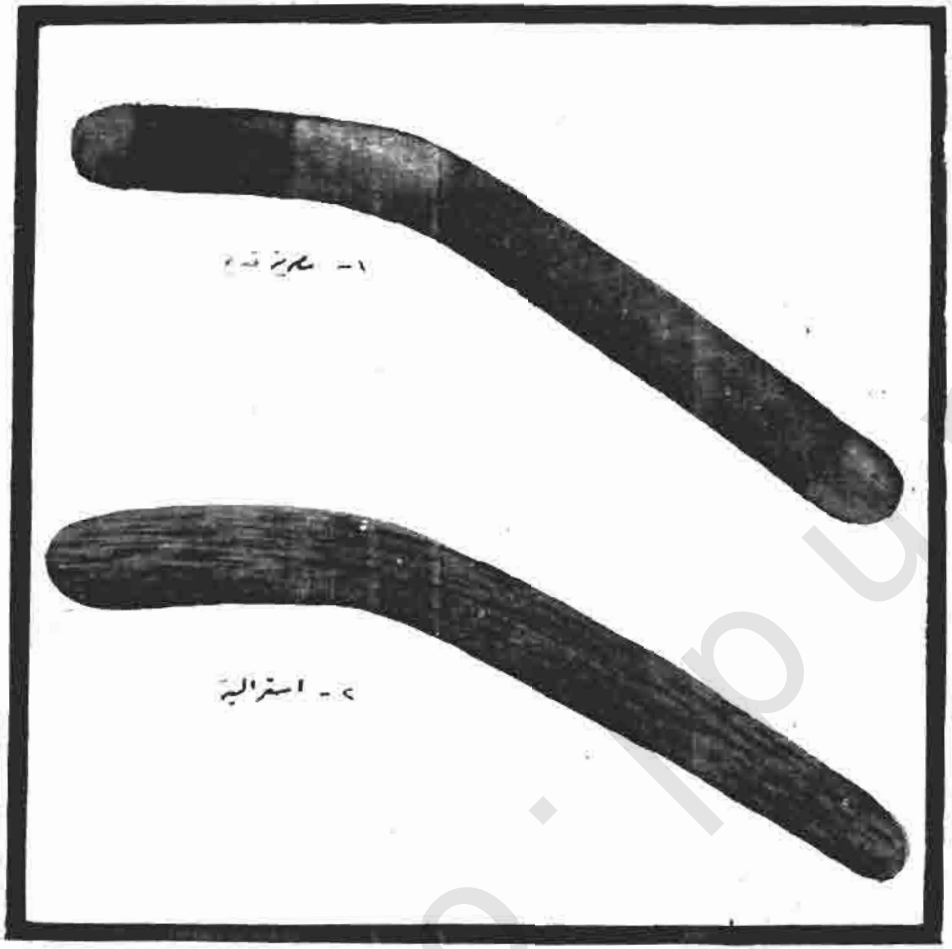

١ — صورة قطعة من الخشب من مقبرة توت عنخ امون ، كانت مستعملة عند قدماء المصريين لصيد الطيور في المستنقعات حيث يكثر بكثرة نبات البردي
٢ — صورة لنفس هذه الآلة التي استحضرها المتحف المصري خصيصاً من استراليا المقابلة وهي تعرف هناك باسم البومبرانج ولا تزال مستعملة الى الآن

(لوحة رقم ٢)

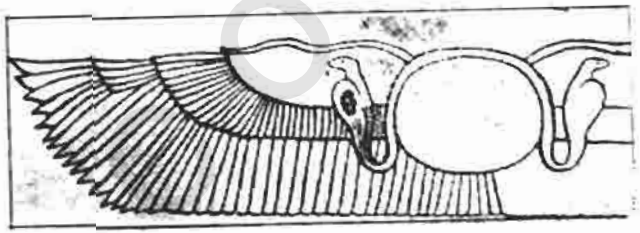

١ — مصرية

١ — تمثل قرص الشمس ذا الاجنحة تكتنفهُ
من الجانبين الحية المقدسة

٢ — اشورية

٢ — تمثل الإلهَ الاشوري « اهورا مزدا »
في دائرة على مثال قرص الشمس
يَكتنفهُ من الجانبين جناحاها

٣ — مصرية

١ — تمثل الملك ستي الاول
يقدم رمز الحق « ماعت »
لاحد الآلهة وهي منقولة
عن معبد ابيروس

(لوحة رقم ٥)

٤ — مكسيكية

٢ — صورة منقولة من نقوش هيكل
احد معابد الشمس في « پالفنك »
بولاية «شياپاس» بالمكسيك الجنوبية وهي
متأثرة ولاشك كل التأثر بالصورة الاولى

obeikandl.com

(لوحة رقم ٢)

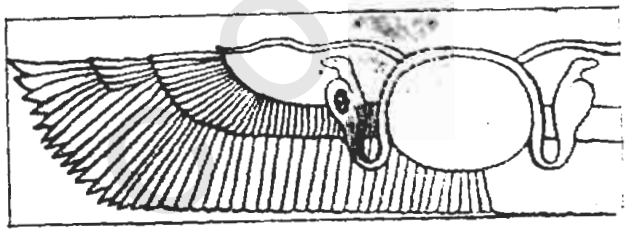

١ — مصرية

١ — تمثل قرص الشمس ذا الاجنحة تكتنفهُ
من الجانبين الحية المقدسة

٢ — اشورية

٢ — تمثل الاله الاشوري « اهورا مزدا »
في دائرة على مثال قرص الشمس
يكتنفهُ من الجانبين جناحاها

٣ — مصرية

١ — تمثل الملك ستي الاول
يقدم رمز الحق « ماعت »
لاحد الآلهة وهي منقولة
عن معبد ابيروس

(لوحة رقم ٥)

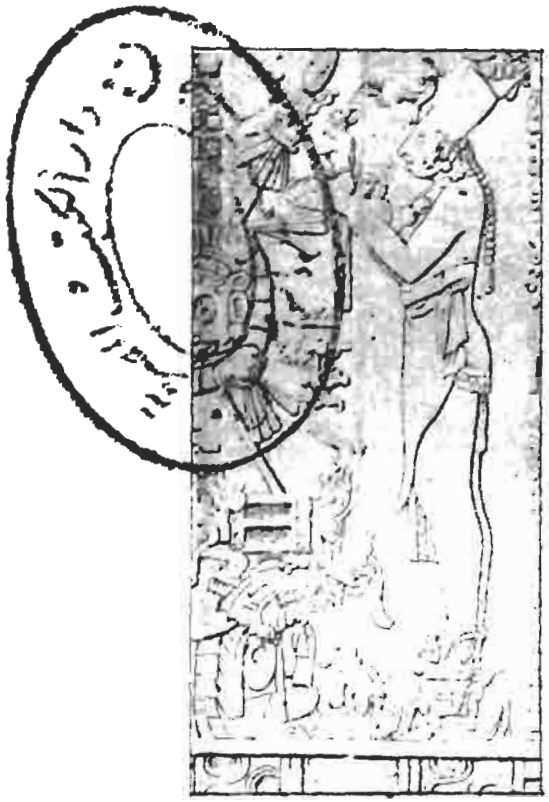

٤ — مكسيكية

٢ — صورة منقولة من نقوش هيكل
احد معابد الشمس في « پالفنك »
بولاية «شياپاس» بالمكسيك الجنوبية وهي
متأثرة ولاشك كل التأثر بالصورة الاولى

obeikandl.com

فاقوا أساتذتهم في تلك الصناعات وقدموا للعالم أواني فخارية ومعدنية تعتبر أرقى ما وصل اليه الانسان من البراعة في الصناعة والفنون . وقد أجريت في السنوات الاخيرة حفائر بالجزيرة أظهرت لنا عظم الصلة بين حضارتها وحضارة مصر ، وقد رأيتم التشابه الكبير بين أواني كريت وأمثالها من الاواني المصرية التي عرضها عليكم أحد الزملاء في محاضرة سابقة . أما في القصور التي بناها ملوك كنوسُس فأثر الحضارة المصرية واضح جلي . وكما أخذ الكريتيون عن حضارة مصر اقتبسوا أيضاً من حضارات الامم الاخرى لاسيما الفينيقيين ، ولكنهم وجهوا تلك الحضارات وجهة خاصة بهم . غير أن الاصول المصرية ترى واضحة الظهور فيها

هكذا تكوَّنت الحضارات الثلاث الأُوَل التي تعتبر أُسس حضارات العالم وقطعت شوطاً بعيداً في التقدم ولم يحل بعدُ الالف الثاني قبل الميلاد

فاذا كان أوائل الالف الثاني قبل المسيح . اذ بأمم أخرى في أدوار تكوين حضارتها . واذ بعوامل جديدة تشترك في تكوينها ،فقد اتصل الفينيقيون رسل الحضارة المصرية بأمم آسيا الغربية ، وكان أهم من اتصلوا به بعد البابليين هم الحيثيون الذين كانوا يسكنون آسيا الصغرى . وكان هؤلاء على اتصال دائم بمهدين للحضارة هما بلاد ما بين النهرين وجزر بحر إيجي . غير انهم تأثروا بتلك الحضارة الجديدة الوافدة اليهم ، وساعد على ظهور صبغة عالية لحضارتهم فيما بعد عاملان ، اولهما وجود معدن الحديد في جبالهم الواقعة عند سواحل البحر الاسود الجنوبية . وثانيهما معرفتهم للخيل . اذ كان لهذين العاملين أثر كبير في حروبهم وحضارتهم، على أن اتصال الحيثيين بالحضارة المصرية لم يكن فقط عن طريق الفينيقيين . اذ أن الحيثيين قد اتصلوا ايضاً بفلسطين موطن اليهود في ذلك العصر .ولا داعي ان نذكر ان يهود فلسطين كانوا قد تحضروا بالحضارة المصرية من بدء تاريخهم اذ عاشوا اكثر من الف عام في كنف المصريين حتى خرجوا مع موسى وناهيك بما نقلوه عن المصريين في تلك القرون الطويلة من عوائدهم وأفكارهم وعلومهم على الوجه الصحيح

وإننا لو اعتبرنا حضارة الحيثيين أقل بكثير من حضارة مصر وبابل ، فإننا لا يمكننا أن ننكر أنها لعبت دوراً هاماً في مجموعة الحضارات المجاورة لبحر إيجي وحوض البحر الابيض المتوسط الشرقي . غير أن أهم دور لعبهُ الحيثيون كان في حياة الاشوريين . فأشور التي نشأت تحت نفوذ الصومريين سكان دلتا ما بين النهرين كانت في ذلك الوقت في دور تكوين حضارتها . والأشوريون ورثة الحضارة البابلية كانوا على اتصال دائم من جهة الشمال والغرب بأمم أخرى كلها ذات صلة بالحضارة المصرية كالفينيقيين والحيثيين ويهود فلسطين. وقد عرض عليكم بعض الزملاء في محاضرة سابقة صوراً تبين أثر الحضارة المصرية في حضارة أشور ، وأرى أن أعرض عليكم الآن صورة أخرى يرى فيها الارتباط بين الافكار المصرية والأشورية (أنظر لوحة رقم ٢)

تحت كل هذه المؤثرات نمت وأينعت الحضارة الاشورية الكلدانية وكوّنت الطور الثاني من حضارة بلاد النهرين وكان لها تأثير عظيم في أمم آسيا على وجه عام وفي أمة الفرس على وجه خاص

ولعظم أهمية الامة الفارسية في تاريخ الحضارات نرى لزاماً علينا أن نشير بطرف الى شيء من حضارتها . فالفرس يمكن تسميتهم بحق أسلاف الاوربيين فهم من الجنس الآري الذي احتل الجزء الممتد من حدود الهند الشرقية الى المحيط الاطلانطيقي وكانوا يتكلمون لغة هي التي اشتقت منها اللغات الاوربية . انتشر هؤلاء القوم وتفرقوا فتطورت لغاتهم وأصبحت لغات متباينة ومن ذلك الفارسية القديمة واليونانية واللاتينية والسنسكرت المعروفة في الهند الشرقية . وقد نزح بعضهم الى البلقان واستقرّ بعضهم بايطاليا . اما من بقي منهم في الشرق فقد رحل الى الهند واستوطن بها أو استقرّ غرب الخليج الفارسي . وهؤلاء الاخيرون ظلوا يدعون باسمهم « ايرانيون » . اختلط هؤلاء الايرانيون بالامم الشرقية بغرب آسيا وتكونت لهم حضارة خاصة لم تظهر الاّ في عصر الانتشار لكنها نمت تحت تأثير حضارة الاشوريين ببلاد ما بين النهرين . اذن فهي لا تخلو من عناصر مصرية . وقد زاد تلك العناصر المصرية في حضارة الفرس ما نقله الفينيقيون منها الى تلك البلاد عن طريق المحيط الهندي والخليج الفارسي كما نقلوا الى باقي أمم الشرق الادنى في آسيا .

(لوحة رقم ٣)

وكان لحضارة الفرس أعظم الاثر في حضارة اوربا . وكما ساعد الفينيقيون على انتشار الحضارات لاسيما المصرية في أمم آسيا في هذا الطور . كذلك كان لهم صنع هام في نقلها الى شواطىء اوربا . فقد نقلوا الحروف الهجائية التي اقتبسوها من الحروف المصرية الى جزيرة كريت كما نشروها من قبل في غرب آسيا وامتد استعمالها من تلك الجزيرة الى شرقي اوربا أي الى بلاد اليونان ثم الى الرومان بعد ذلك وكانت هذه أول كتابة ظهرت على سواحل اوربا وربما يلذّ لكم أن تروا هذه الكتابة في أطوار انتقالها : (انظر لوحة رقم ٣)

قلنا إن كريت أخذت استعمال النحاس عن مصر وقد اتضح لنا الآن أنهم أخذوا الكتابة

أيضاً ، وهذان هما أهم عنصرين في انتقال العالم من العصور الحجرية الى العصور التاريخية أو عصور المدنية والتقدم . واذا ذكرنا الكريتيين وحضارتهم واتصالهم بالمصريين من العصور السحيقة في القدم فانما نذكر ذلك لان الكريتيين هم اسلاف اليونانيين في الحضارة . فقد غزت أساطيل الكريتيين التجارية من أوائل الالف الثاني قبل المسيح سواحل آسيا الصغرى من جهة بحر ايجي وظهر في منتصف هذا الالف قصور لامراء ايجيين في ميرانا ومسينا وهذا هو مبدأ عصر ازدهار الحضارة المسينية . ورب معترض يقول : وأين مصر من تلك الحضارة وقد بعدت الشقة بينهما بعد هذه التطورات ؟ فلكي اصل ما انقطع في الاذهان من روابط تلك الحضارة رأيت ان أعرض احدى الصور (انظر لوحة رقم ٤)

على ان براية اليونان الرحل الذين كانوا قد استطابوا المراعي الخصبة في شمال بلاد اليونان ، أخذوا يتوغلون شيئاً فشيئاً الى أن تمكنوا من غزو كل سواحل اليونان الجنوبية وجزر بحر ايجي حتى جزيرة كريت نفسها . كان ذلك بعد منتصف الالف الثاني قبل المسيح . ونرى آثار تلك الغزوة ظاهرة في نقوش طيبة اذ نرى منظراً يمثل رمسيس الثالث في موقعة حربية مع الايجيين الذين فروا أمام غزاة اليونان وأرادوا النزول الى الشواطىء المصرية . وقد كانت هذه الغزوة المنكرة سبباً في ضياع الحضارة الايجية لاسيما في كريت . على أنه لم تمض الا فترة قصيرة حتى اتحد الغازون مع السكان الاصليين . وهما من جنس واحد ، وأنشأوا أكبر حضارة عرفها التاريخ وهي الحضارة اليونانية

الآن وقد ذكرنا شيئاً عن مهود الحضارت الاولى وكيفية تكوينها . ومبلغ ما أسدت حضارة مصر لذلك التكوين ، يجدر بنا أن ننتقل الى القسم الثاني وهو عصر انتشار الحضارة الناضجة والاتصال الوثيق بين مصر وغيرها من الامم وأود هنا أن أوجه التفات حضراتكم الى ان الاتصال بين الامم في عصر القسم الاول كان غالباً عن طريق التجارة أو الحروب . أما في هذا العصر فالاتصال وثيق جداً اذ هو عبارة عن اختلاط تام لأزمنة طويلة ، مكن الامم المختلطة من درس حضارات بعضها والاقتباس من بعضها في الصناعات والفنون والعوائد والافكار اقتباساً واسع النطاق

ففي هذا العصر انتشرت الحضارات التي تكلمنا عنها سريعاً الى الشرق والغرب فأخرجت الامم التي كانت لم تزل في عصور الهمجية الى عصور المدنية والتقدم

ويبدأ هذا العصر في عهد الدولة الحديثة بمصر ، أي قبل المسيح بألف وخمسمائة عام حيث كانت مصر في أوج عظمتها واحتلت جيوش فرعون معظم بلاد غرب آسيا فأصبحت فلسطين وفينيقيا وسوريا مستعمرات مصرية . وأصبح لمصر ولمدنية مصر القدح المعلى بين تلك الامم . وبلغ من نفوذ مصر هناك أن شيد ملوكها معابد في تلك البلاد كالمعبد الذي شيده رمسيس الثالث في كنعان

ومعبد تحتمس الثالث في رتنو وانتشرت الأفكار المصرية كما انتشرت الفنون والصناعات والعوائد في غرب آسيا . واستمر ذلك ثلاثمائة عام . فاذا كان عام ١٢٠٠ ق . م . نجد مصر قد انكمشت قليلاً ونجد الفينيقيين رسل حضارة مصر وقد عظم نفوذهم وزادت متاجرهم على شواطىء آسيا الصغرى كما انتقلوا الى شواطىء افريقيا الشمالية . ونجد اليونانيين وقد زادت حضارتهم وعمّت جزر بحر ايجي وسواحل آسيا الصغرى ، وزاد اتصالهم بمصر حتى أسسوا بها مدناً خاصة لهم

فاذا جئنا الى القرن الثامن قبل المسيح وجدنا مصر وقد فترت عزيمتها من كثرة ما انتابها من غزوات الاجانب ووجدنا الدولة الاشورية وقد أشرق نجم عظمتها وامتد نفوذها الى ما حولها من بلاد غرب آسيا واستمر نفوذها يشتد حتى خضعت لها مصر وفلسطين وسوريا كما خضع لها اليديون في بلاد ايران . وهكذا حكمت الامبراطورية الاشورية الشرق كلهُ

فاذا كنا في عام ٦٠٠ ق . م . إذ بالامبراطورية الاشورية ما زالت عظيمة غير ان مصر خرجت من يدها وابتدأ يغزو مصر النفوذ اليوناني كما غزا جزءاً هامًّا من آسيا الصغرى وتساليا وامتد الى ايطاليا وصقلية وشواطىء بلاد الغول (فرنسا) . كما نجد نفوذاً آخر بدأ يجتاح أمامه نفوذ الامم الاخرى في حوض البحر الابيض وهو نفوذ الفينيقيين اذ نجدهم يؤسسون مستعمرة قرطاجنة في شمال افريقية ممتدة من تونس حتى جبل طارق وهي المستعمرة التي كان لها بعد ذلك بضع قرون أعظم تجارة في حوض البحر الابيض كما كانت أقوى منافساً لرومة في اواخر القرن الثالث قبل المسيح

فاذا انتقلنا الى القرن الخامس قبل الميلاد اذ بالامبراطورية الفارسية وقد نمت وعظم شأنها فيما بين حدود الهند شرقاً وحدود اليونان غرباً حتى عمّ سلطانها معظم هذه الامم . وأصبحت مصر وبلاد غرب آسيا وحول البحر الاسود من جهة اوربا مستعمرات فارسية . واصبحت وجهاً لوجه أمام اليونان والرومان من بعدهم . وقد ظلت هذه الامبراطورية العظيمة لم تخضع للامبراطوريات الاوربية اكثر من الف عام . وكانت حضارتها ذات أثر واضح في معظم أمم آسيا كالهند والصين وغيرها

فاذا كان أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، رأينا مقدونيا في شمال بلاد اليونان وقد كبرت وعظمت قوتها فاحتلت جيوش الاسكندر الاكبر كل آسيا حتى حدود الهند شرقاً كما احتلت مصر وأسس الاسكندر مدينة الاسكندرية

فاذا كان القرن الثالث قبل الميلاد نجد رومة وقد عظم سلطانها تحاول انتزاع النفوذ من قرطاجنة مستعمرة فينيقيا التي أصبحت خطراً يهددها . وفي هذا العصر يحكم مصر ملوك يونانيون أهمهم البطالسة ويستمر ذلك نحو الثلاثمائة عام

فاذا جاء أواخر القرن الاول للميلاد نجد رومه وقد تغلبت على منافسيها وأسست أعظم أمبراطورية عرفها التاريخ وأصبحت مصر إحدى مستعمراتها

وهكذا نجد الحضارات الاولى التي كانت حضارة مصر من أهم عناصرها قد انتشرت عن طريق هذه الامم في النصف الغربي من آسيا وفي كل اوربا كما انتشرت في شواطىء افريقيا الشمالية

الآن وقد انتهينا من هذا الاستعراض التاريخي . نود أن نذكر بعض العوامل الأخرى الهامة التي كانت من أسباب انتقال الحضارة المصرية في أطوار نضوجها إلى أوروبا المتحضرة

ومن أهم هذه العوامل مدينة الاسكندرية . فقد أصبحت هذه المدينة بعد تأسيسها أعظم مركز اتصال للحضارات المختلفة على وجه عام وللحضارة المصرية واليونانية على وجه خاص . ولا يتسع المقام هنا لذكر كل ما انتقل من مصر عن طريقها من أفكار وعلوم وصناعات وفنون ويكفي ان نذكر انهُ كان هناك فن خاص ذاع عند اليونان والرومان ويطلق عليهِ الفن الاسكندري

ولا ننكر أن مصر اقتبست من الحضارات الجديدة التي تكونت على شواطىء البحر الأبيض الشمالية . غير أن ما اقتبسهُ اليونان والرومان من الحضارة المصرية الناضجة كان أعظم . وقد بلغ من تأثر اليونانيين بالافكار المصرية أن أصبحت عبادة الإلهة إزيس شائعة في بلادهم . وما اسم « إزيدورا » الذائع بين الاسماء اليونانية الا ترجمة لعبارة معناها « عطية ازيس » وقد كان لهذه المعبودة معبدٌ قائم بمدينة دلفي

وقد نعرف مبلغ آثار الحضارة المصرية في الغرب كله اذا نظرنا الى آثارها عند الرومان فقد وجدت الافكار المصرية طريقها من اليونان الى روما وبلغ من تأثر الرومان بالديانة المصرية أن أقام الامبراطور « كاراكالا » معبداً فخماً للإلـه المصري « سيرابيس » وهو الإلـه أزريس متحدٌ مع العجل « ابيس » وقد أقام الملك هدريان مسلة في رومة ونقش عليها تذكاراً بالكتابة الهيروغليفية . وما زال السائح على ضفاف نهر الرين والدانوب يرى تماثيل صغيرة للإلهة « إزيس » لا على أنها مصرية بل على أنها من مواطني تلك البلاد

على أن امتداد الحضارة المصرية لم يكن الى الشمال والشرق والغرب فحسب، بل كان ايضاً الى جهة الجنوب . فقد ثبت ان مصريّ ما قبل التاريخ كان يعرف شواطىء البحر الاحمر الجنوبية وقد تكلم عن ذلك أحد الزملاء

أما في العصور التاريخية فقد كثرت رحلات المصريين الى الجنوب وقد اهتمّ ملوك الدولة القديمة بارسال بعثات الى السودان والحبشة فتوغلت تلك البعثات في افريقيا ليأتوا بالأقزام الذين كان لهم حظوة عند ملوك مصر ، ونرى تماثيلهم منتشرة في المتحف المصري . على ان أهم ما حدا بالمصريين الى الاتصال بالجنوب كان الاهتمام باستجلاب المر والطيب وغيرهما من مواد التحنيط

من بلاد الصومال التي كانوا يدعونها « پونت » . وقصة البحار المصري الذي قام برحلات في البحر الاحمر وما في قصصه عن ذلك من خيال بديع هي من عصر الدولة الوسطى

وكان لاتصال المصريين بالجنوب أثر هام في نقل كثير من الحضارة المصرية الى أمم آسيا على الشواطىء الجنوبية والشرقية . أضف الى ذلك الرحلات الواسعة النطاق التي كان يقوم بها التجار الفينيقيون في المحيط الهندي منذ القرن الثامن قبل المسيح وينقلون في آبانها من حضارتهم وحضارة مصر الى أمم الشرق الاقصى الشيء الكثير. وقد بلغ هؤلاء التجار في رحلاتهم المحيط الباسفيكي. فلا موضع للعجب اذا رأينا في الهند وفي برما واستراليا وحتى على شواطىء المكسيك آثاراً للحضارة المصرية وللافكار المصرية . وما نعت ملوك الشرق الاقصى بأبناء الشمس وأبناء السماء وعبادتهم للشمس وتمثيلهم لمعبود مركب من قرص الشمس ذي أجنحة باشق مع الثعبان ، الا من آثار تلك الحضارة

على أننا لو أردنا أن نبحث عن كل ما نقل من الحضارة المصرية الى جميع هذه الأمم لوقفت امامنا صعوبات عديدة . اذ أن معظم ما نقل لم ينقل كما هو بل اختلط بحضارات أخرى وتناولته يد التغيير في كثير من نواحيه

وبالرغم من ذلك فقد يستطيع المرء ان يرى في بعض نواحي حضارات البلاد النائية كاستراليا واميركا آثاراً واضحة للحضارة المصرية لم تطمس معالمها يد التغيير فتبرز له الاصول المصرية في النحت والتصوير وفي الافكار وحتى في أساليب الحياة (أنظر اللوحتين رقمي ٥ ، ٦)